

محاولة بائسة

آمال عماد

ما إن تغير لون الإشارة ولوّح عسكري المرور حتى انطلقت السيارات
مسرعة مفزعة وكأن قطار الموت يلحق بهم. وقفت آنذاك غير عابئ
بما حولي من أبواق السيارات ولا إهانات سائقي الميكروباصات. ظللت
صامتا لا يُحرِّك لي ساكن. شعرت بأني وحيد وقد خلت الشوارع والميادين
من السابلة والكلاب الضالة. أفقت من شرودي على طرّق خفيف لزجاج
السيارة وإذ بطفلة تتوسل:

-«خد منّي والنبي يا بيه»

ومدت يدها بعلبة مناديل صغيرة. أشحتها بلطف ومددت يدي ببضع
جنيهاات ولكنها رفضت:

-«أنا ما بشحتش يا بيه، هتاخذ مناديل؟! هاخذ حقها. مش عايز بلاش!»

أعجبت بعزة نفسها التي لا أقوى أنا على الشعور بها، فأخذت كل ما
معهها من مخزون ونقدتها ما يزيد عن ثمن علب المناديل جميعها.

انطلقت بسيارتي إلى ميدان التحرير وقد جاوزت الساعة ١٢ صباحا
بقليل. صفت السيارة وأخذت أجوب الطرقات كمن لا صاحب له ولا
عنوان. حتى عرجت إلى إحدى البارات القديمة القابعة بوسط البلد منذ
ستينات القرن الماضي. جلست على إحدى الطاولات بجانب نافذة مطلة
على شارع رئيسي وطلبت من النادل زجاجة بيرة وسجائر. كانت تلك

المرة الأولى لي في بار وشرب الكحول أيضاً.

فأنا الولد الوحيد لأمي. وهبت حياتها لأخذ قراراتي وتنظيم حياتي وتلبية رغباتي. كانت شديدة التحفظ متمسكة بعادات وتقاليدها اندثرت ودفنت مع أجدادي منذ سنين. كنت طفل خجول خائف من المجهول والمعروف أيضاً. نظرة من أمي كانت كفيلة لتبقيني أيام وليال لا أقوى على النوم ولا يلامس عيني النعاس. شَبَّتُ شخص ضعيف ساذج حالم، أتوق إلى يوم زفافي وميلاد أول حفيد لأمي. إلى أن دهسني قطار الحياة ذهاباً وإياباً وغشيني ظلام الواقع واذقني من المر علقم. أفقت من دهشتي لهذا العالم البائس على شعور بالعدمية واللامبالاة يكسو سنين عمري سواداً.

أحسست لوهلة بأني مراقب، أخذت أتأمل وجوه الجالسين حتى وجدتتها، تطالعني بشغف قارئ ممسك بكتاب أضاع عمراً بحثاً عنه.

أشحت بوجهي بعيداً لتعتقد أنني غير آبه لنظراتها. ثم سمعت وقع أقدام باتجاه طاولتي. لم ألتفت. أخذت تحديق في بضع لحظات ثم استطردت سائلة:

-«ممكن اقعد؟»

أجابتها دون النظر إليها:

-«اتفضلي».

جلست بجانبني وأشعلت سيجارة استعارتها دون إذن من علبتي ثم طلبت كأس نبيذ أحمر صادحة:

- «على حساب البيه».

لم أعلق. شعرت بيدها تعتصر فخذي الأيمن. أحسست بسخونة تسري في جسدي. فأصابني شبق ورعشة اعتقدت أنني نسييتها منذ أمد.

أحسست بأناملها تمتد لأعلى رجلي فأزحت يدها بهدوء قائلاً:

-«معلش مش فالمود انهارد»

ردت بصوت خفيض:

-«واللي يظبطهولك؟»

أصررت على موقعي حتى أيقنت أن كل محاولاتها ستبوء بفشل محتوم. عقدت حاجبيها ورمقتني بنظرة امتعاض كأن باغتها حالة قئ مفاجئ ثم تركت الطاولة قائلة:

-«شكرا على الكاس!»

أشعلت سيجارة تلو الأخرى وأنا أتسائل متى آخره مرة لامست فيها امرأة. أدركت أن ستة أشهر قد مضت على هذه الليلة. كانت من أسعد لحظاتي مع «ليلى»، كنا للتو أقمنا عامنا الخامس ولم تحاول يومها أن تحدثني عن الزواج كعادة كل عام. بل كانت جميلة بضة، تشتعل وجنتيها احمراراً وتلمع عينيها رغبة. ما أن أفرغ من مضاجعتها حتى تنهال على رقبتني بقبلات حارة وتلتهم شفتي نهماً وتحاوطني بجسدها شوقاً فنعيد الكرة من جديد. في كل مرة كنت أعشقها أكثر وكنت أشعر بحرية وقوة لم أعهد لها من قبل. لم أرى في حياتي أجمل من «ليلى» أو هكذا خيل إلي. اتخذت من عشقها محراباً ومن أحاديثها صلوات وفي

وجودها إبتهلت تضرعاً وخشوعاً. لو أن نساء العالم اجتمعن ليغوينني ما التفت لامرأة مهما بزغ جمالها.

حينما استيقظت صباح اليوم التالي، أراعني رحيل «ليلي» بلا وداع ولا تفسير. لم تخلف وراءها سوى صمت مدوي؛ ذلك الصمت الذي يكشف لك وحشة وحدتك وبرودة عالمك وفقر روحك. رُحْتَ استرجع كل كلمة وحديث ونقاش، علي أجد ما يخمد حيرتي ويضمد جراح قلبي. آخر ما بيننا من جدال كان عن زواجنا فنحن نعيش في مجتمع «منغلق» ولا يصح خمس سنوات بلا «دبلة». واحتد النقاش واشتعل عند ذكر ضيق الحال وقلة الأموال. فكيف بمهندس اتصالات مرموق يعمل بإحدى الشركات الكبرى في نفس المجال، وينتهي به الحال إلى كم ديون وهموم وساعات عمل لا تنتهي؟

تبدّت لي حقيقتي الآن كطفل مشوه أبت الحياة إلا أن تقذف به لهذا العالم الموحش ليتجرع من العذاب مراراً ومهانة. كنت دوماً أشبه حالي بالعاهرة تتلقفني أحضان الشركات لينتزعن أوراق «زهرة شبابي».

فتنهري «ليلي» صائحة:

-«إنت راجل! عيب تقول على نفسك كده!»

رجل... تلك الصفة المطبوعة على بطاقة هي فراق بيني وبين المومس. أتذكر أول مقابلة أتممتها في ذلك المكان عندما اقتحم الغرفة ودون اكتراث قال:

-« سمعت feedback كويس عنك من الشباب. ان شاء الله خير. Nice
“to meet you

ثم خرج السيد "عمر فراويلة" دون عبئ النظر إليّ أو التحقق من مدى كفاءتي.

كان له صوت زاعق وحضور جاثم للأنفاس يعكس كل ما تتمثل فيه تلك الشركات من عبودية وقبائح ودهس النفس والكرامة. دائماً ما يرافقانه في جولاته حول ممرات الإدارات كلاً من "ممدوح عبد المجيد" و"اصطفانوس نسيم". "ممدوح" كان شخص طيب النفس كثير التبسم. ينم هدوئه عن توتر مكظوم وقلق مشحون. أرنو لإرشاده وتوجيهاته وكثيراً ما يجبرني من عذابات ما أحمل من مهامٍ عُسْر. أما "اصطفانوس" فهو ذو وجه مكتنز وكرش متدلٍ ورأس ناصعة الصليعة؛ أقبح ابتسامته اصفرها. يضرر شُحُّ نفسٍ وخبثٌ تَجَلَّى في دعاياته اللزجة ولمزاته لمرؤوسيه من الرجال طبعاً. أما النساء - وما أكثرهم في فريقه - فكان لهم وضع خاص ومحط تقدير بلا داعٍ أو تبرير.

ثالوث المدراء ذاك كفيل بأن يسند إليك مهام وأعمال لو قضيت دهرًا ما فُتِيتَ. وإن كرسْتَ أيامك ولياليك وعمرك وأنجزتَ عملٍ ما، تمخض لسان السيد "فراويلة" لينجب:

«good job» -

أو

- "مية مية. اللي بعده"

كل شكواي من ضيق الوقت واستحالة العيش كانت تجاب بجملة واحدة:

"إيهاب لمعي قال ماتروحوش إلا لما الشغل يخلص"

بغيض ذلك "اللمعي"، مقيت. يتبع دين التسلق ويمتهن التَرْكُفَ حرفة. تأتي أهوائه على الحط من قدر مَنْ حوله وإمعانه في إذلالهم وتهميش وجودهم وذكّ أعناقهم. أسمع أقاويل تصف مدى قوة ذلك الرجل وعنفه. فبرغم ذلك، كل ما أُجِيشُ من مشاعر تعاطف تلوذ فرارا لذكر أسمائهم؛ فكما أنتم يُوَلَّى عليكم.

أُضِيعَتْ حبيبتي ودُفِنَتْ أُمِّي وسُفِكَتْ صحتي وأنا لازلت لم أقوى على قدر يسير من مهام يوفر لي تقديرا أو تمييزا. فقط تلك الكلمات الصماء ذات خواء المحتوى وفراغ المضمون. كتلك التي يقولها المغتصب بعد أن يجهز على فريسته، فينهل من ريقها وينهش من روحها ويسجّيها جثة مهترئة. لن يرغب بها غيره. ولن تهوى وصال العيش مهما أفاض من الوقت بقية.

إِلْتَفْتُ عن يميني فوجدته واجم الوجه مطئط الرأس وأشيب الشعر. حاولت أن أعينه فلم أقوى. ناديته فلم يسمع. ناجيته فلم يخشع. أمعنت النظر لأستذكر له اسم أو عنوان. فَرِغْتُ. وجدته انعكاسي في مرآة مشروخ، بطول ضلفة باب البار وعرضها. خرجت مسرعا أهرب مما فطنته وتيقنت من وجوده؛ فالنهاية معلومة والأقلام مرفوعة أما الصحف... مقطوعة.